محمد شطا

«هربت من القرية إلى المحلة هربا من الفقر، وهربت من المحلة هربا من الاعتقال».
محمد شطا
(من حواره معى)

ولد فى عام ١٩١٨ فى قرية كفر قرشوم (محافظة المنوفية)، الأب هارب من السخرة فى قناة السويس، وعقاب الهارب من السخرة أن يضرب حتى الموت فى غالب الأحيان. وتظل حكاية هرب أبيه سرا يغلف حياة الفتى ويمنحه طاقة نضالية لا تنتهى. أبوه كان ضمن عمال السخرة الذين اختطفوا قسرا من قراهم ليحفروا قناة السويس. الضرب والتعذيب والتجويع كانت أبسط العقوبات، واحد من زملائه المقربين انزلقت رجله خلال الحفر وحاولوا أن يمدوا له يدا لإنقاذه. ولكن أن تمد يدا تعنى أن تترك الفأس لدقيقة، وذلك ممنوع، انهال كرباج الخولى، وأمرهم أن يستمروا فى الحفر، وانهال التراب على زميله ليموت رويدا رويدا أمام زملائه. ليلتها تجمع عدد منهم، وعلى رأسهم أبوه، قرأوا معا «الفاتحة» وأكلوا معا عيشا وملحا وتعاهدوا عهد الله أن يهربوا معا وألا يفشى أحدهم سر ترتيبات الهروب. ويهرب الأب إلى كفر قرشوم حيث لا أحد يعرفه. والمثير للدهشة أنه ظل يخفى سره حتى بعد أن أصبح لا مبرر لإخفائه. لكن محمد ظل يغلى من داخله بهذا السر حتى آخر أيام حياته. الأب امتد به العمر إلى ما بعد التسعين بكثير، وفى سن التسعين أو بعدها بقليل أنجب «محمد»، وفى أيام طفولته ذهب إلى الكتاب لكن العريف (زوج أخته) كان يقسو عليه كطلب الأب. فترك الكتاب والتحق بكتاب الشيخ قرموط فى تلا. لكن المشوار اليومى أفسد عليه مشروعه لحفظ القرآن وتجويده. وفى عام ١٩٢٧ (وهو فى التاسعة) افتتحت فى القرية مدرسة إلزامية. كان يحفظ عديدا من آيات القرآن ليتفوق بها على تلاميذ المدرسة، ويصبح الأول دائما. الأب يزهو به ويحلم بابنه موظفا، فكان

يشترى له من سوق تلا كتبا قديمة، أغلبها ممزق وبلا غلاف لكنه كان يقرأها بنهم. لكن أحوال الوالد تتدهور وهو ملزم أن يتعلم وأن يساعده فى الغيط. وذات يوم سمع المنادى ينادى: «اللى عايز ياكل عيش يروح المحلة الكبيرة». هناك الأجر قرش واحد فى اليوم والعمل ١٣ ساعة. والجدد لا يقبضون فى الأشهر الثلاثة الأولى. واحتمل الأولاد مثله، ينامون كل ٢٤ فى الغرفة. وإذا لم تكفهم الغرفة يتمددون أمامها فى الشارع. الجيران يغضبون من هذا القطيع من الغرباء الذين ملأوا الشوارع وأفسدوا هدوء المدينة. فشكل السكان فيما بينهم جماعات لضرب هؤلاء الغرباء وتطفيشهم من المحلة. والعمال شكلوا جماعات للدفاع عن أنفسهم وعن رزقهم. ففى المصنع يعملون فى الظل وليس تحت شمس الغيط، والأجر ثابت، صحيح قرش فى اليوم لكنه مضمون. وبعد فترة يمكنه أن يعود للقرية يوم الجمعة ليزهو بجلباب جديد و«تلفيعة».

وإدارة الشركة تخشى هى أيضا من هذا القطيع من العمال فوضعت خطة لإلهاء العمال عن أوضاعهم البائسة، وسعى عملاؤها إلى الوقيعة بين أبناء المديريات المختلفة خاصة أبناء الثلاث مديريات المجاورة للمحلة. المنوفية والغربية والدقهلية. وبعد فترة أصبح وبلا منازع فتوة أبناء المنوفية. وينغمس العمال فى خلافاتهم وفى صراعاتهم حول أبطال المواويل القديمة. أبو زيد الهلالى وعنتر بن شداد وغيرهما. ويظل حلم أن يصبح مثل عنتر بن شداد يراوده. وعندما يتزوج وينجب ولدا وجد لزاما عليه أن يسميه شطا على اسم والده لكنه ظل يناديه «عنتر» وأصبح يزهو وحتى نهاية العمر بلقب «أبو عنتر».

لكن الوعى العمالى ينبثق مجتمعيا من التجمع فى صالات المصنع ومن الظلم الذى يعم الجميع، ومن ظروف عمل أقل ما توصف به أنها بشعة. ومثل نبت تلقائى ينهض قائد عمالى اسمه محمد الكفورى يراقب العمال ليختار أكثرهم وعيا وأكثرهم شجاعة، وكانت عينه بالطبع على محمد شطا. وبدأوا معا فى تأسيس نقابة سرية. ليست نقابة بالضبط وإنما تجمع عمالى سرى قادر على تحريك مجموعات لا بأس بها من العمال فى مختلف الصالات، وهنا يستفيد المناضلون السريون من ترتيبات إدارة الشركة، فعمال كل مديرية لهم تجمعهم ويجلسون جميعا فى مقهى خاص بهم، بل كانت لهم علامات تميزهم فالجلابية الكستور المخططة تلزمها طاقية من ذات القماش. وتفنن الخياطون من أبناء كل مديرية فى تمييز الطواقى، حتى يتميز الرجال بها. فبعض الطواقى تكون خطوطها بالطول وأخرى

بالعرض، وثالثة لها تفصيلة متميزة. وبهذا كان من السهل تجميع الكثيرين من الموثوق بهم. وكأن إدارة المصنع كانت تعمل لصالحهم. وتحت قيادة محمد الكفورى، وهو قائد تلقائى، يتحول الفتوة المنوفى محمد شطا إلى مناضل عمالى ينسى دور الفتوة وينسى الصراع بين أبناء المديريات المختلفة، المناضل العمالى يخوض الآن وبشكل تلقائى وبدائى جدا صراعا طبقيا. وتحركت المياه الراكدة، فالقيادة السرية لها فى كل صالة مندوبون سريون وذوو نفوذ، وتبدأ تحركات تتمرد ضد ظلم «مشرف» ما، على صالة ما، وضد تشدده. وفى البداية كان الانتقام بدنيا. ففى المساء تتربص مجموعة ملثمة من العمال لتضرب هذا المشرف الظالم، أو تضرب عملاء الإدارة.

ورويدا رويدا يتحول هذا الانتقام غير الواعى إلى صدامات جماعية داخل المصنع وإلى إضرابات تصحبها هتافات ضد الظلم وضد المشرفين والمديرين، وتحاول إدارة الشركة عبثا أن تتعرف على الفاعلين. لكن تكرار العمل النضالى وبدائيته كشفت عديدا من الأسماء منهم محمد الكفورى ومحمد شطا. وفى هذه الأثناء قامت الحرب العالمية الثانية وأعلنت مع قيامها من الأحكام العرفية، وبدأت حملات اعتقال للعمال «المشاغبين». وذات مساء، وفيما يخطو محمد شطا نحو البيت الذى يسكن فيه، لمح من بعيد مخبرين يحاصرون البيت، وأيقن أنهم يريدون اعتقاله. فتسلل من المدينة ليركب أول قطار وكان متجها إلى كفر الدوار وهناك ووسط عمال النسيج، وجد أن البعض يسمعون باسمه وبأنه فتوة عمال المنوفية، وبأنه يدافع عن العمال، وتكاثرت الثرثرة البدائية المغلفة بمبالغات كبيرة، وأحس بأن أعين الأمن تتابعه، فهرب مرة أخرى.

وفى شبرا الخيمة يجد لنفسه مستقراً، واستطاع أن يتحصن بهؤلاء الذين سمعوا به وبما فعل فى المحلة. ولقنهم دروسا فى حماية المناضلين من الأمن. وهنا فى شبرا الخيمة ينهض قائد عمالى جديد متسلح بخبرة النضال العمالى فى المحلة وكفر الدوار ومتخلص من النزعات الإقليمية ومن تصرفات «الفتوة»، ويقول: «أدركت أن مهمتى أن أقود الجميع من العمال ضد الجميع من الرأسماليين، لكننى لم أكن قد سمعت كلمة طبقة ولا عرفت معنى ولا مغزى الصراع الطبقى».

وفى شبرا الخيمة تلقفته منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطنى (ح.م). ليبدأ معها حياة جديدة ونضالا جديدا.

«فى صفوف (ح-م) تعلمت، والتزمت بالقضية، وعشت من أجلها، وبها، ولم أتصور حياتى بدون النضال الثورى من أجل الطبقة العاملة».

محمد شطا

(من مذكرات خطية أودعها لدى)

الفتوة أصبح قائدا عماليا شيوعيا. تعلم أسس النظرية وتعلم أسس العمل النقابى والعمل السرى. وبدأ نضالا واسعا فى مصانع شبرا الخيمة. ورويدا رويدا أتقن فن إقامة التنظيم العمالى غير المعلن فى المصانع. لجان فى كل صالة. اللجنة تختار لها مندوبا إلى قيادة اللجنة المصنعية ويكون لها حق سحب الثقة منه، ثم لجنة عامة لعمال شبرا الخيمة. وتحت قيادة هذه اللجنة التى كان محمد شطا شريكا فاعلا فيها، قام الإضراب الكبير فى شبرا الخيمة والذى استمر أربعة وعشرين يوماً. ويدرك محمد شطا أنهم بحاجة إلى دعم، فيسافر إلى المحلة ليجمع مئات من عمالها الذين يعرفونه جيدا ويعود بهم إلى شبرا الخيمة حيث أعربوا - وبحماس - عن تأييدهم. إنها تجليات المعرفة النظرية بالصراع الطبقى أو كما لخص هو الأمر فى مذكراته «طبقة ضد طبقة» ويتحول الإضراب إلى مادة للصحف، بعضها يؤيده (صحف اليسار وحزب الوفد) وبعضها يعارضه، وكان أكثر المخربين للإضراب هم عمال جماعة الإخوان، ونشرت جريدة الإخوان مقالات عديدة تعتبر أن الإضراب هو إضرار بأرزاق البلاد والعباد، وخروج على ولاة الأمور، وولاة الأمر هنا - هم أصحاب المصانع - «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم». ومقال آخر يقول: «إن المال مال الله وما أصحاب الأموال إلا مستخلفين فيها. وإن الله هو مقسم الأرزاق». وبرغم خيانة الإخوان وعنفوان حكومة الطاغية إسماعيل صدقى ينجح الإضراب بعد أن يتوج محمد شطا كواحد من أهم قادته.

وبرغم تعميم قرار فصله هو وقيادات عمالية أخرى على كل أصحاب المصانع فى شبرا الخيمة ليمنع الجميع من قبوله فى أى مصنع، ظل يحتفظ برابطة قوية مع اللجان المصنعية فى كثير من مصانع شبرا الخيمة.

ومما هو طبقى يتلقن ما هو وطنى، ففى ١٩٤٦ كانت مصر كلها تغلى، والمظاهرات تهتف «عاش الطلبة مع العمال»، وسمع أن تلميذات مدرسة بولاق مضربات وأن البوليس

يحاصر المدرسة، فجمع عديدا من العمال لينقذوا الطالبات.

وفيما كانت «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» تتشكل كتنظيم لجبهة وطنية تلقى من القيادة تعليمات بسرعة تشكيل لجان عمالية لتنضم إلى هذه اللجنة. اللجان جاهزة وهو جاهز، وأصبح واحدا من قادة اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التى قادت إضرابات صاخبة استمرت طويلا فى كل مكان من مصر، وتجلت بطولة منظميها يومى ٢١ فبراير (بالقاهرة) و٤ مارس (بالإسكندرية). ويوجه الطاغية صدقى ضربته ويقبض عليه ضمن كثيرين من قادة اليسار والعمل الوطنى فيما سمى «قضية الشيوعية الكبرى». وعندما بدأت موجة الانقسامات فى منظمة «حدتو» هو كان عضوا فى اللجنة المركزية، لكنه سئم من ثرثرات البرجوازيين الصغار الذين يمتلكون القدرة على الثرثرة لساعات وأيام لكنهم يفتقرون إلى القدرة على أى عمل جماهيرى ولو لدقيقة واحدة. ويقول فى حواره معى: «قلت لنفسى أريد تنظيما عماليا حقا، يمثل الطبقة العاملة حقا، وفيما كان المثقفون الثرثارون أبناء الذوات والأجانب يتحدثون عن ضرورة إقامة تنظيم يضم ١٠٠٪ عمال فى منظمة (م.ش.م) (المنظمة الشيوعية المصرية) تطلعت إليهم ولم يعجبونى لا شكلا ولا موضوعا، وشاركت فى تأسيس تنظيم يقول: ٧٥٪ عمال (العمالية الثورية) ولم أجد حتى الآن تفسيرا لذلك، وفى المعتقل عانيت أكثر من ثرثرات المثقفين والبرجوازيين الصغار، كانوا يملأون حناجرهم بأكثر الشعارات ثورية لكنهم لا يعرفون مطلقا كيف يعيش الناس ولا ما هى همومهم، المهم صبرت عليهم وصبروا هم على حتى انتهى المعتقل وذهبت إلى كفر قرشوم لأطمئن على عائلتى وأرتب لها بعض أمورها، عدت بعد عدة أيام لأكتشف أن أغلب هؤلاء الثرثارين قد هجروا العمل الثورى. فكثيرون من قادة (ع.ث) (العمالية الثورية) حصلوا بترتيب من وزير الداخلية آنذاك، فؤاد سراج الدين، على منح للحصول على الدكتوراه من باريس ومن لندن فسافروا. وآخرون كانت فترة الاعتقال كافية لإسكاتهم. واكتشفت الخديعة التى وقعت فيها وعدت إلى بيتى القديم؛ حدتو. ويصبح «حميدو» (وهذا اسمه الحركى) مسئولا عن الإسكندرية وعضوا فى المكتب السياسى. وبعد حريق القاهرة (يناير ١٩٥٢) يعتقل فى معتقل النزهة ليقود إضرابا شهيرا قام فيه المعتقلون بالقبض على قائد المعتقل وكل من معه من الضباط وفرضوا سيطرتهم على المعتقل حتى حققوا كل مطالبهم. ثم كانت ثورة يوليو ويفرج عن جميع المعتقلين إلا أربعة عشر هو واحد منهم. ويقرر «حميدو» أن يوجه

لطمة لمن لا يريدون الإفراج عنه، ويهرب من المعتقل. الأمر الذى أثار غضب وزير الداخلية آنذاك (جمال عبد الناصر)، وفيما هو مختف وجه اللطمة الثانية، فيدبر ويخطط لتهريب عديد من معتقلى «حدتو» فى معتقل روض الفرج. ويتقرر إحالة أمر هذا الثعلب المشاغب إلى المخابرات التى أدركت أن اصطياد رجل كهذا يحتاج إلى لقمة كبيرة، فسربوا إليه خبرا عن صفقة للحصول على منطاد كبير يسرق من الأرصاد الجوية، ويمكنه أن يلقى من الجو حمولة بها عشرات الآلاف من المنشورات. الأمر يستحق وما إن أطل برأسه حتى قبضوا عليه وإلى مكان لا هروب منه «السجن الحربى»، وقدم للمحاكمة فى قضية «الجبهة الوطنية الديمقراطية» وحكم عليه الفريق الدجوى بالأشغال الشاقة ثمانى سنوات. ومن سجن طرة إلى الواحات، لكن ثمانى سنوات لا تكفى بالنسبة لسجانيه فإذ تنتهى يبقى فى ذات السجن معتقلا فقط يتغير لون بدلة السجن من الأزرق إلى الأبيض. وعندما تصفى المعتقلات يكون هو فى آخر دفعة.

وفيما كنت أجرى حوارى معه اختتم الحوار بالحديث عن قرار حل الحزب.. وقال: «لقد خدعنا الحكام بوعود كاذبة»، ثم صمت وقال: «هل رأيت سمكا يخرج من الماء»؟. أنا هكذا».